المنهجية المعجمية العربية
بين الصوت والمعنى والباب والفصل

عمر موسى باشا

دمشق

اهتم العرب القدماء كثيرا بلغتهم، لأنها اللغة الفصحى المقدسة التي أنزل بها القرآن الكريم. ومن هذا المنطلق فإن اللغة العربية كانت قطاف التطور اللغوي للعربية القديمة، عبر عصورها الجديدة، فبلغت قمة نضجها الفني حين ظهر الإسلام.

وليس من باب المصادفة، أن يشير المعجميون في خطب معاجمهم إلى أهمية اللغة العربية، وإحاطتها بهالة من التقديس والإعجاب بما فيها من أصالة تكوينية وحداثة توليدية، صرفا واشتقاقا وحركات ودقائق معنوية، يضاف إلى ذلك هذا الشمول والاتساع والغزارة في الأصول، ذلك لأن العربية الأخيرة جمعت كل سابقاتها، فهي لهذا السبب أغنى لغات الأرض قاطبة.

وليس من باب المصادفة أيضا في مقدمة ابن منظور أن يشير إلى الحديث النبوي الشريف: "أحبوا العرب لثلاث: لأني عربي، والقرآن عربي، وكلام أهل الجنة عربي" (لسان العرب ٧/١ خطبة المؤلف).

ومن هذا المنطلق اهتم اللغويون العرب القدامى بوضع مصنفات تجمع شمل المفردات اللغوية المتفرقة، ضمن التحديد الذي يلتزمونه مثل مصنفات الإبل والخيل، والوحوش والجراد، والحشرات، وغيره، ولم يكتفوا بذلك، وإنما شمل تصنيفهم المعجمي الإنسان وغيره.

لن نتحدث عن تاريخ المعاجم، ولا بد لنا من تعريف لفظ (المعجم) الذي أطلق على هذا النمط من التصنيف، ومن المفيد جدا أن نشير إلى تطور لفظ (المعجم). ذكر ابن جني أن مادة (عجم) للإبهام والإخفاء وضد البيان؛ وذكر الجوهري أن "الأعجم الذي لا يفصح ولا يبين كلامه، وإن كان من العرب" و(أعجم الكتاب) بخلاف أعربه، والعجم هو النقط بالمواد، يقال: أعجم الكتاب أي نقطه.

أما الخليل فقد عرف المعجم بقوله: "الأعجم الذي لا يفصح، والمعجم: حروف الهجاء المقطّعة لأنها أعجمية، وتعجيم الكتاب: تنقيطه كي تستبين عجمته وتصح"[١].

---

[١] معجم العين، مادة عجم، باب العين والجيم والميم معهما، ج ١/٢٣٧-٢٣٩.

THE ARABIST. BUDAPEST STUDIES IN ARABIC 11–12 (1994)
https://doi.org/10.58513/ARABIST.1994.11-12.6

والملاحظ أن الخليل كان أدق من عرف المعجم من القدماء، فنقله من معناه الأول إلى معناه الاصطلاحي الذي استخدمه العلماء اللغويون من بعده. ومن المفيد أن نشير بعد هذا التقديم والتعريف إلى أن المعجميين سلكوا ثلاثة سبل في بناء المعجم العربي بدءاً بالخليل بن أحمد الفراهيدي، صاحب أول معجم علمي لغوي في تراثنا العربي.

ويمكن أن نجمل هذه السبل الثلاثة في المناهج التالية: وهي المنهج الخليلي، والمنهج الدريدي، والمنهج الجوهري؟

المنهج الخليلي:

مما لا شك فيه أن أبا عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي (المتوفى سنة ١٧٥هـ/ ٧٩١م) كان الرائد اللغوي الأول، وصاحب أول تصنيف معجمي في تراثنا العربي.

لقد أُوتي عبقرية لغوية متميزة بقيت متجاهلة، أو مجهولة، في عصره، أو من جاء بعده من اللغويين، والغريب أن بعضهم تبنى بعض آرائه اللغوية، واستشهد بها في تصانيفه، ولم يشر إلى صاحبها الأول، حتى إنه لم ينج من التهجُّم عليه حسدا له، والغض مما توجه إليه.

أبرز محققا (العين) أهمية الخليل في الريادة اللغوية، وقد نوّها بالأسبقية، ليس على النطاق العربي فحسب، وإنما ضمن السبق اللغوي فيما يتعلق بعلم الأصوات وعلم وظائف الأصوات.

ومما قالاه في التقديم: "أن الخليل قد وضع أول معجم للعربية، فلم يستطع أحد ممن تقدمه، وممن عاصره أن يهتدي إلى شيء من ذلك"[٢].

واستطرد المحققان فذكرا: "أن صنعة أول معجم في أية لغة من اللغات، على نحو وترتيب جديدين، لا سابق لهما، لهو من أعمال الصفوة العباقرة الخالدين" (المصدر السابق، ج ١/ص ٨).

لعل أول ما يلاحظ هذا السبق اللغوي في علم اللسان، وخاصة هذه الآراء التي اعتمدها في تصنيف معجمه، وذلك أنه نظر في أصوات الحروف الهجائية، فوجد أن الألف لا تصلح أن تكون الحرف الأول في المعجم الذي يصنفه، وعلّل ذلك بقوله: "والألف ... ليست من أصل البناء، وإنما أدخلت هذه الألفات في الأفعال وأمثالها من الكلام، لتكون الألف عمادا وسلما للسان إلى حرف البناء، لأن اللسان لا تنطق بالساكن من الحروف فيحتاج إلى ألف الوصل ... فافهم إن شاء الله" (المصدر السابق، ج ١/ص ٤٩).

استخدم الخليل طريقة مبتكرة لم تخطر على بال أحد قبله من اللغويين العرب، فقد اعتمد الحروف الصحيحة، وأهمل حروف العلة، وجعل ترتيبها بحسب مخارج الأصوات، وآية ذلك كله اعتماده على التجربة الذاتية، وقد وضحها في تقديمه بقوله:

---

[٢] مقدمة المحققين، مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، ج ١/ص ٨.

"وإنما كان ذواقه إياها أنه كان يفتح فاه بالألف، ثم تظهر الحرف، نحو (أب) و(أن)، و(أخ)، و(أع)، و(أغ). فوجد العين أدخل الحروف في الحلق، فجعلها أول الكتاب، ثم ما قرب منها، الأرفع فالأرفع، حتى أتى على آخرها، وهو الميم" (المصدر السابق، ج ١/ص ٤٧).

طبق الخليل هذه التجربة الذاتية، وتوصل إلى الحقائق اللغوية التي وضحت القواعد الأساسية في بناء اللغة العربية على هذا الشكل الذي صارت إليه بعد مرورها في أطوار قديمة جدا، وقد سماها اللغويون اللغة القديمة. وهي اللغة التي تفاعلت مع اللغات العربية الأخرى، فبلغت قمة تطورها حين أنزل بها القرآن العربي.

رتّب الخليل معجمه على نظريته الصوتية، وجعلها في ثماني طبقات، أضاف إليها طبقة تاسعة، وهي حروف العلل (فهذه تسعة وعشرون حرفا، منها أبنية كلام العرب) (المصدر السابق، ج ١/ص ٥٨).

ومن المستحسن أن نترك الخليلل يشرح لنا نظريته اللغوية كما وردت في مقدمته، بقوله: "بدأنا في مؤلفنا هذا بالعين، وهو أقصى الحروف، ونضم إليه ما بعده حتى نستوعب كلام العربب، الواضح والغريب، وبدأنا الأبنية بالمضاعف، لأنه أخف على اللسان، وأقرب مأخذا للمتفهم" (المصدر السابق، ج ١/ص ٦٠).

لم يكتف السيوطي بالاعتماد على العين لكونها نقطة البدء عنده، وإنما قارنها بغيرها من الحروف القريبة منها: "فأقصى حروف الحلق كلها العين" (المصدر السابق، ج ١ / ص ٥٧). كما أضاف إلى ذلك قوله: "إن العين لا تأتلف مع الحاء في كلمة واحدة لقرب مخرجيهما" (المصدر السابق، ج ١/ص ٦٠).

شرح الخليل نظريته بقوله:

- فالعين، والحاء، والخاء، والغين، (حلقية)
- والقاف، والكاف، (لهويتان) لأن مبدأهما من (اللّهاة).
- والجيم، والشين، والضاد (شَجْرِيّة) لأن مبدأها من شَجْر الفم، أي مخرج الفم.
- والصاد، والسين، والزاء (أسْلية)، لأن مبدأها من (أسلة اللسان). وهي مستدق طرف اللسان.
- والطاء، والتاء، والدال، (نطعية)، لأن مبدأها من (نِطْع الغار الأعلى).
- والظاء، والذال، والثاء، (لثوية) لأن مبدأها من (اللثة).
- والراء، واللام، والنون، (ذَلَقية) لأن مبدأها من (ذلق اللسان) وهو تحديد طرفي ذلق اللسان.
- والفاء، والباء، والميم، (شفوية)، وقال مرة (شفهية)، لأن مبدأها من الشفة.
- والياء، والواو، والألف، والهمزة (هوائية) في حيّز واحد، لأنها لا يتعلق بها شيء.

فنسب كل حرف إلى مدرجته وموضعه الذي يبدأ منه، وكان الخليل يسمي الميم (مطبقة) لأنها تَطبق الفم إذا نطق بها (المصدر السابق، ج ١/ص ٥٨).

وجدير بنا الوقوف عند الحروف الهوائية، وهي أربعة ليست في أصل البناء، لأن هذه الحروف يقال لها: (حروف العلل) (المصدر السابق، ج ١/ص ٥٩).

ومن المفيد أن نجري مقارنة لغوية بين حروف العلة في العربية، وفي غيرها. ففي اللغة الفرنسية مثلا ستة أحرف علة هي (a, e, i, o, u, y) منها حرفان متشابهان صوتيا هما الحرفان (a, e) وهما مثل الألف اللينة أو الساكنة، والحرفان (o, u) وهما مثل الواو والحرفان (i, y) وهما مثل الحرف (الياء).

وهكذا توحدت وتشابهت الحروف العللية في اللغتين معا، وكذلك الأمر في اللغات الأخرى، ولكل لغة خصائصها المميزة فيما يسمى بحروف العلة (voyelles).

أجرى الخليل التقليبات في الألفاظ العربية المجردة، وذلك بحسب التقليب والنقل أولا، وآخرا، ووسطا، كما أشار إلى المستخدم منها، والمهمل الذي لم يجد له معنى في اللغة العربية، وهذا على جانب كبير من الأهمية، وقد لاحظ المحققان في حديثهما عن البناء المضاعف الثلاثي والرباعي أن الخليل استطاع أن يدرك "أن الفعل الثلاثي قائم على الثنائي وأن هذا الثنائي يصار به إلى الثلاثي عن طريق التضعيف وإما عن طريق زيادة صوت آخر"[٣].

وقد قورن في الزيادة والتقليبات ما هو موجود في اللغات الأخرى قياسا على ما يزاد في الأول باسم (prefixe) وما يزاد في الوسط باسم (infixe) وما يزاد في الأخير باسم (suffixe).

بيد أننا يجب أن نفرق في الإضافات الثلاث، أولا، ووسطا وآخرا بين العربية وغير العربية. فهذه الإضافات ليست إضافة إلى الأصل، وإنما هي تبدلات داخلية تقديما أو تأخيرا، ولكنها ليست إضافة تغير المعنى الأصلي للكلمة العربية كما هي الحال في اللغات الأخرى.

يتضح مما تقدم معنا أن الخليل كان صاحب نظريات صوتية في الكتاب المقدم، وأنه استطاع بذكائه وعبقريته أن يكون الرائد العالمي الأول في فقه اللغة عامة، وعلم الصوتيات، ووظائفه خاصة.

كما أنه استطاع من خلال هذه النظريات أن يتبنى أول معجم عربي، له منهجه الخاص به، وقد كان سباقا في التصنيف المعجمي لا في العربية فحسب، وإنما في تاريخ اللغات العالمية قاطبة، وذلك وفق المنهج الذي كان فيه الرائد، وكان نسيج وحده في المنهج المعجمي الذي وضعه لنا، ووضحه وبيّن بواعثه، وصنف أحواله وصوره المختلفة.

لم يقتصر المنهج الخليلي على نفسه، وإنما تأثر به عدد من اللغويين فكونوا مدرسة خاصة. ومن هؤلاء القالي (المتوفى سنة ٣٥٦هـ/٩٦٦م) فقد وضع كتابه "البارع في اللغة"، والأزهري (المتوفى سنة ٣٧٠هـ/٩٨٥م) وكتابه "تهذيب اللغة" والصاحب بن عباد

---

[٣] مقدمة العين لمهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، ج ١ / ص ١٤٠.

(المتوفى سنة ٣٨٥هـ/٩٩٥م) وكتابه "المحيط" وابن سيده (المتوفي سنة ٤٥٨هـ/ ١٠٦٥م) وكتابه "المحكم".

درس د. حسين نصار هذه المدرسة الخليلية، وتحدث عن خصائصها وعيوبها، بقوله: يؤلف العين والبارع والتهذيب والمحيط والمحكم وما دار حولها من كتب مدرسة واحدة في تاريخ المعاجم العربية. والرابطة المشتركة التي تجمعها ترتيبها حروف الهجاء بحسب مخارجها، وجعل هذا الترتيب أساس تقسيمها إلى كتب ثم تقسيم هذه الكتب إلى أبواب تبعا للأبنية، ثم ملء هذه الأبواب بالتقاليب[٤].

واستطرد المؤلف فتحدث عن الخلافات بين هذه الكتب التي التزمت النهج الصوتي، فقال: "والتزمت جميعها ترتيب (كتاب العين) للمخارج إلا البارع الذي سار على ترتيب مخالف أخذ أغلبه من ترتيب سيبويه مع خلطه بأشياء من ترتيب كتاب العين" (المصدر السابق، ٣٩٢/١).

كما وضح أيضا بعض الدقائق في الاختلاف بين أرباب هذه المدرسة إذ قال: "كان هدف الخليل حصر اللغة واستقصاء الواضح والغريب منها، وهدف الأزهري تهذيبها وتخليصها من الغلط والتصحيف. وهدف ابن سيده جمع المشتت من اللغة في الكتب المتفرقة، وتصحيح ما فيها من أخطاء في التفسيرات النحوية. ويبدو أن هدف القالي يشبه هدف الأزهري، وأن هدف الصاحب بن عباد استدراك ما فات سابقيه من غريب" (نفس المكان).

المنهج الدريدي

ظهر بعد المنهج الخليلي منهج جديد يخالف لكونه غير عملي، وغير ميسر للشادة من طالبي العلم، ويبدو أن هذا لا يصلح إلا للصفوة الخاصة من العلماء الذين يدرسون أصول التقليبات والاشتقاقات، وذلك بحسب الترتيب الألفبائي للحروف الهجائية مع مراعاة الأبنية اللغوية، بدءا من الحرف الأول إلى الحرف الأخير.

أما هذا المنهج الجديد فينسب إلى ابن دريد (المتوفى سنة ٣٢١هـ/٩٣٣م)، وهو صاحب المعجم العربي المعروف (جمهرة اللغة)، وهو مؤلف من ثلاثة مجلدات، شفعها المستشرق كرنكو بمجلد رابع للفهارس العامة.

تحدث ابن دريد عن بواعثه لتأليف هذا المعجم بقوله: "وأملينا هذا الكياب، والنقص في الناس فاش، والعجز لهم شامل. فسهلنا وعره، ووطأنا شازه[٥] وأجريناه على تأليف

---

[٤] المعجم العربي، نشأته وتطوره، ٣٩٢/١.

[٥] الشاز: أصله من الأرض، الغليظ الصعب، وهنا الشديد الصعب.

الحروف المعجمية. إذ كانت بالقلوب أعمق، وفي الأسماع أنفذ، وكان علم العامة بها كعلم الخاصة، وطالبها من هذه الجهة بعيدا من الحيرة، مشفيا على المراد"[٦].

وتحدث عن سبب تسميته معجمه باسم (جمهرة اللغة)، فقال: "هذا كتاب جمهرة الكلام واللغة، ومعرفة جمل منها تؤدي الناظر فيها إلى معظمها، إن شاء الله تعالى، وإنما أعرناه هذا الاسم لأنا اخترنا له الجمهور من كلام العرب، وأرجأنا الوحشي المستنكر والله المرشد للصواب" (المصدر السابق، ٤/١).

طبق بشكل عام التسلسل الهجائي، وقد ذكر أهمية الحروف الألفبائية وخصائصها فقال في خطبة معجمه: اعلم أن الحروف التي استعملتها العرب في كلامها في الأسماء والأفعال والحركات والأصوات، تسعة وعشرون حرفا، مرجعهن إلى ثمانية وعشرين حرفا[٧]. منهما حرفان مخصص بهما العرب دون الخلق، وهما (الحاء والظاء)؛ وزعم آخرون أن الحاء في السريانية والعبرانية والحبشية كثيرة، وأن الظاء وحدها مقصورة على العرب.

ثم استطرد موضحا تصنيفه الأبنية، فذكر أن الكتاب مقسم عنده إلى الثنائي المضاعف، وما يلحق به، فالثلاثي، وما يلحق به، فالرباعي وما يلحق به، والخماسي وما يلحق به.

وذكر بعد ذلك أنه لم تكتف لذلك، وإنما ألحق بهذه الأبواب أبوابا للغة وأبوابا للنوادر.

كما أشار إلى أن ابن دريد لم يبدأ بباب الهمزة كما هو واجب، وإنما بدأ الثلاثي الصحيح بباب الباء، وأخّر باب الهمزة فجعله في باب النوادر في الهمز.

وأحدث ابن دريد حركة نقدية لغوية في عصره بين مادح وقادح، وعكف عليه الأدباء دراسة وحفظا واختصارا وايضاحا ونقدا وتجريحا.

والمعروف أن الصاحب بن عباد اختصر الجمهرة وسماه (جوهرة الجمهرة) وقد كتب حين فرغ من اختصاره[٨]:

لمّا فرغنا من نظم الجوهرة * اعورت العين ومات الجمهرة

والملاحظ أن ابن عباد عيض بالخليل وكتابه العين، وابن دريد وكتابه الجمهرة، ولم يقتصر الأمر على ذلك، وإنما رأينا نفطويه يطعن في جمهرة ابن دريد، ويذكر أنه مسروق من كتاب العين فقال[٩]:

---

[٦] مقدمة جمهرة اللغة (خطبة المؤلف)، ٣/١.

[٧] من المفيد أن نشير إلى أن السيوطي أورد بيتا يجمع الحروف الألفبائية كلها (بغية الوعاة ٢٤٤)
صف خلق خود كمثل الشمس إبا بزغت * يحظى الضجيع بها نجلاء معطار

[٨] جمهرة اللغة، ١٦٧/١ باب الهمزة وما يتصل به من الحروف في التكرير.

[٩] المصدر السابق، مقدمة المحقق، ١٤/١-١٥.

ابن دريد بقره وفيه عيّ وشره
ويدعي من حمقه وضع كتاب الجمهره
وهو كتاب العين إلا أنه قد غيَّره

بيد أن ابن دريد هجاه قائلا:

إفٍ على النحو وأربابه قد صار من أربابه نفطويه
أحرقه الله بنصف اسمه وصيّر الباقي صراخا عليه

ومنها ستة أحرف للعرب، ولقليل من المعجم، وهن (العين، والصاد، والضاد، والقاف، والطاء، والثاء) وما سوى ذلك فللخلق كلهم من العرب والعجم. إلا الهمزة فإنها لم تأت إلا في الابتداء، وهذه الحروف تزيد على هذا العدد، إذا استعملت فيها حروف لا تتكلم بها العرب إلا ضرورة، فإذا اضطروا إليها حولوها عند التكلم بها إلى أقرب الحروف من مخارجها (المصدر السابق، ٤/١).

لم يكتف ابن دريد بهذا التقسيم العام الثنائي، وإنما شفعه بتقسيم ثنائي ثانٍ ضمن سبعة أجناس في قوله:

"الحروف سبعة أجناس، يجمعهن لقبان (المصمتة) و(المذلقة): فالمذلقة ستة أحرف. و(المسحفة) اثنان وعشرون حرفا، ثلاثة منها (معتلات)، وتسعة عشر حرفا (صحاح).

* فمن المصمتة الصحاح (حروف الحلق) وهي (الهمزة، والهاء، والعين، والخاء، والغين) مأخذهن من أقصى الحلق إلى أدناه. أما الهمزة منهن، فمن مخرخ أقصى الأصوات، و(الهاء) تليها، وهي من موضع النفس و(الحاء) أرفع منها، وهي أقرب حرف يليها.

* أما (المذلقة) من الحروف فهي ستة، ولها جنسان: (جنس الشفة): وهي (الفاء، والميم، والباء).

و(الجنس الثاني): من المذلقة. وهي (الراء، والنون، واللام)

وهي ممتزجات بصوت الغنة.." (المصدر السابق، ٤/١).

وضح د. حسين نصار منهجه في معجمه، وأشار إلى الإضطراب في أبوابه، وذكر أن تصنيفه الأبنية هو تصنيف الخليل مع بعض الزيادات فهي عنده ثلاثية، ورباعية، وخماسية كالخليل، وملحقات بكل صنف منها، ويريد من الثلاثي الثنائي المضاعف، والثلاثي معا (المصدر السابق، ٤/١، ٧).

يبدو أن هذا المنهج الدريدي الألفبائي المركب لم يلق القبول المطلق من اللغويين، نخص منهم ابن فارس (المتوفى سنة ٣٩٥هـ) فقد صنف معجمين أولهما المقاييس والمجمل. ولكن هذا المنهج بدأ يتطور عند الزمخشري (المتوفى سنة ٥٣٨هـ) فيأخذ شكله المبسط بإهمال التقليبات في الأبنية كما كان عليه عند ابن دريد وغيره، وهكذا كان هذا المنهج الشكل الأمثل للمعاجم لا في عصره، وإنما في العصر الحديث، كذلك كان هذا المنهج الألفبائي المبسط نقطة التحول الكبير في المنهجية المعجمية العربية، شكلا ومضمونا لأن المعاجم تحولت من اللغة إلى البلاغة والأدب.

المنهج الجوهري

كان اللغويون يحرصون منذ القرن الرابع الهجري على تصنيف معجمي جديد يستطيع من خلاله الباحث الحصول على المعرفة اللغوية المبتغاة، ويبدو أن المنهجين السابقين، لم يحققا للعلماء المنهج المطلوب، ولا سيما أن كثرة استخدام السجع في النثر، والتزام الروي الموحد في القافية الشعرية حتم على اللغويين إيجاد منهج جديد يساعد الكاتب والشاعر معا على العثور على المفردات اللغوية ذات الحرف المحد في لام الكلمات والأفعال، وهكذا ظهرت المعاجم التي اتخذت الاعتماد على الحرف الأخير، فسمته (بابا) بحسب الحروف الألفبائية، ثم التزم الأمر نفسه في أوائل كل كلمة بدءا بحرف الألف وسمي (فصلا).

والمعروف أن اللغوي العلامة أبا نصر إسماعيل بن حماد الجوهري كان الرائد في هذا المنهج الجديد، منهج الأبواب والفصول، يقول في خطبة معجمه:

"أما بعد، فإني قد أودعت هذا الكتاب، فأصبح عندي من هذه اللغة التي شرف الله منزلتها، وجعل الدين والدنيا منوطا بمعرفتها، على ترتيب لم أسبق إليه، وتهذيب لم أُغلب عليه، في ثمانية وعشرين بابا، وكل باب منها ثمانية وعشرون فصلا، على عدد حروف المعجم وترتيبها، إلا أن يهمل من الأبواب جنس من الفصول بعد تحصيلها بالعراق رواية، وإتقانها دراية، ومشافهتي بها العرب العاربة، في ديارهم بالبادية، ولم آل في ذلك نصحا، ولا ادخرت وسعا، نفعنا الله وإياكم به" (تاج اللغة وصحاح العربية، ٣٤/١).

أشار د. نصار إلى أن الجوهري "لم يخرج عن هذا الترتيب إلا في الباب الأخير، إذ جمع فيه الألفاظ المنتهية بالواو والياء معا، ولم يفرق بينهما، وختم المؤلف المعجم بباب الألفاظ المنتهية بالألف اللينة ..." (المعاجم العربية، ٤٨٨/٢).

استهل الجوهري باب الألف المهموزة بقوله: "نذكر في هذا الباب الهمزة الأصلية التي هي لام الفعل، فأما الهمزة المبدلة من الواو نحو (العزاء).. أو من البدلة من الياء نحو (الآباء) فنذكرهما في باب الواو والياء، إن شاء الله تعالى" (تاج اللغة وصحاح العربية، ٣٤/١).

وفي العودة إلى باب الواو والياء نفسه، نجد الجوهري يستهله بقوله: "جميع ما في هذا الباب من الألف إما أن تكون منقلبة من واو مثل (دعا) أو من ياء مثل (رمى)، وكل ما فيه الهمزة فهي مبدلة من الياء أو من الواو .. ونحن نشير في الواو والياء إلى أصولهما إن شاء الله تعالى" (المصدر السابق، ٢٢٥٩/٦).

أحدث معجم الصحاح ومنهجه في الأبواب والفصول، والحرص على التسلسل الهجائي في الأبواب أولا، وهي أواخر الأصول، ثم الالتزام التام في التسلسل الهجائي بحسب الفحل في الحرف الأول، فالثاني، فالثالث، وكان أمضنا على التطبيق التسلسلي أبوابا أولا، وفصولا ثانيا، مع مراعاة الالتزام نفسه في الحرف الثاني والثالث.

كثرت الدراسات اللغوية حول تاج اللغة، فظهرت حركة نقدية استهدفت دراسة مختصراته وتكملاته، وتحشياته، وانتقاداته، بالإضافة إلى كتب الدفاع عنه، وكتب دراسة شواهده، كما أن أبا الحسن يحيى بن معط الزاوي المغربي (المتوفى سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م) شرح بنظم الصحاح، لكنه لم يكمله.

أما المعاجم الأخرى التي نهجت نهجه، فهي ذات أهمية كبرى منها، على سبيل التمثيل لا الإحاطة، كتاب العباب للصغاني (المتوفى سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٢م) ولسان العرب لابن منظور (المتوفى سنة ٧١١هـ/١٣١١م) والقاموس المحيط والقاموس الوسيط للفيروزابادي (المتوفى سنة ٨١٦هـ/١٤١٣م) وتاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي (المتوفى سنة ١٢٠٥هـ/ ١٧٩٠م) ومعيار اللغة لميرزا محمد علي محمد صادق الشيرازي، وقد طبع معجمه بين عامي (١٣١١-١٣١٤هـ/١٨٩٣-١٨٩٦م).

هذه هي المناهج الثلاثة التي استخدمها اللغويون العرب، وقد بلغوا فيها من الدقم مبلغا تتضاءل عنده المناهج المعجمية الاخرى في العصور السابقة. ومما هو جدير بالذكر أن بعض هذه المناهج قد يكون متأثرا ببعض المؤثرات اللغوية كالهندية، وليس هذا مؤكدا لأنّ ذلك قد يكون بحكم المصادفة، وذلك لأن القضايا اللغوية تتأثر فيما بينها.

مهما تكن من أمر هذا كله فمما لا شك فيه أن المعجمية العربية كانت رائدة سابقة. واستطاعت أن تصل إلى نتائج هامة سبقت في بعض الأحيان الصوتيات الحديثة وعلم وظائف الأصوات.

ثمة أمر آخر، وهو أن المعجمية العربية كانت مظهرا من مظاهر الموسوعية العربية. ويمكن أن نعد بعض المعاجم موسوعات أدبية ولغوية لأنها انتقلت من الاصطلاح اللغوي إلى إغناء هذا الاصطلاح بما هو مأثور من القرآن والحديث والشعر، بالإضافة إلى الحكم والأمثال والشواهد المختلفة، ويكفي أن نحكم على ذلك من خلال المعجمات المطولة التي لم يبلغ شأوها أية معاجم أخرى. ففيها المعارف الأدبية واللغوية والتاريخية واللجغرافية، ومن هذا المنطلق فإننا نشير إلى الأدب الجغرافي العربي من خلال معجم البلدان لياقوت الحموي.

هذه هي المعجمات العربية لها تاريخها المجيد في السبق المعجمي، ولقد بدأت المجامع العلمية في الوطن العربي وغيره بإصدار معاجم عربية حديثة. وأملنا كبير في أن نصل في القريب العاجل إلى ما بلغته المعاجم الغربية الحديثة من الدقة في التصنيف المعجمي، هذا بالإضافة إلى التخصص الدقيق في نوع المعاجم في اللغة الواحدة.

المصادر والمراجع:

أساس البلاغة: أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (المتوفى سنة ٥٣٨هـ/١١٤٤م). تحقيق عبد الرحيم محمود وتقديم أمين الخولي. مطبعة أولاد أورفاند، القاهرة ١٣٧٢هـ/١٩٥٣م.

تاج اللغة وصحاح العربية: أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري (المتوفى سنة ٣٩٣هـ/١٠٠٣م). تحقيق أحمد عبد الغفور عطار. دار الكتاب العربي بمصر، ١٣٧٦هـ/١٩٥٦م.

تاج العروس من جواهر القاموس: أبو الفيض السيد محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني الواسطي الزبيدي اليميني، الملقب بالمرتضى (المتوفى سنة ١٢٠٥هـ/ ١٧٩٠م)

جمهرة اللغة: أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي البصري (المتوفى سنة ٣٢١هـ/٩٣٣م). مكتبة المثنى ببغداد - مصورة عن الطبعة الأولى - مطبعة مجلس دائرة المعارف، حيدر آباد، الدكن ١٣٤٤هـ.

العين: أبو عبد الرحمن، الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي الأزدي اليحمدي (المتوفى سنة ١٧٠هـ/٨٧٦م). تحقيق الدكتور مهدي المخزومي والدكتور إبراهيم السامرائي. منشورات دار الهجرة - إيران - قم ١٤٠٥هـ.

القاموس المحيط والقاموس الوسيط: أبو طاهر محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم بن عمر، مجد الدين الشيرازي الفيروزابادي (المتوفى سنة٨١٧ هـ/١٤١٥م). المطبعة الحسينية المصرية ١٣٣٠هـ القاهرة.

لسان العرب: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن علي بن منظور الأفريقي المصري (المتوفى سنة ٧١١هـ). دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر، بيروت ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م.

مختار الصحاح: محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي (المتوفى سنة ٦٦٦هـ/١٢٦٨م). دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٧٩م.

المعجم العربي - نشأته وتطوره: الدكتور حسين نصار. مكتبة مصر - دار مصر للطباعة ١٩٥٦م.

المصباح المنير: أبو العباس أحمد بن علي المقري الفيومي (المتوفى سنة ٧٧٠هـ/١٣٦٨م). مكتبة لبنان، لبنان ١٩٨٧م.